ولم يكن في فلسطين يهود ذوو شأن سوى ذلك العدد القليل من العمال الفقيان ، وكان يتراوح عددهم في جميع المزارع الجماعية في الجليل بين الفين الى ثلاثة الاف ، اما في الجنوب من الجليل فكانوا قليلين جدا الى درجة لا تستحق الذكر . وكان بوسع العرب ان يبيدونا في مثل لمح البصر لو انهم كانوا يبيتون اية خطة او نية لمثل ذلك . لم تكن هنالك اية جماعة بين العرب — السكان غير اليهود — تخطط او تنظم لمثل هذا الامر ، بل كانت هناك مجرد اعمال فردية .

اقتصرت جماعات اليهود الذين كانوا يفدون الى فلسطين على المتعصبين من الصهيونيين ، والمتعصبين دينيا ، اما جماهير اليهود — جماهير الشعب اليهودي — فلم ترغب في الذهاب الى فلسطين ، بل كانوا يتجهون الى الولايات المتحدة وكندا وافريقيا الجنوبية وامريكا الجنوبية ، وحتى بعد سنوات من اعلان وعد بلفور ، في السنة ١٩٢٩ او ربما ١٩٢٧ او ١٩٢٨ اضطر حاييم وايزمن الى الذهاب الى رومانيا ليحفز اليهود فيها الى الهجرة الى فلسطين ، قائلا لهم : « انظروا ، لقد انتزعنا وعد بلفور من البريطانيين دون الاستناد الى اي أساس واقعي ، والان يظل البريطانيون يسألوننا: اين هم يهودكم ؟ فاذا كان سيتأتى لنا ان نملك أرض اسرائيل « اريتز ازرائيل » ، واذا كنتم تؤمنون بذلك (لم يكونوا يؤمنون بذلك !!) فتعالوا الى فلسطين » . فيومئذ كان تسعة الاف يهودي يهاجرون من فلسطين مقابل كل ستة او سبعة الاف يهودي يفدون اليها . ولم يبدأ العامل اليهودي في الظهور في فلسطين العربية بصورة ملموسة الا ابتداء من العام ١٩٣٣ ، وفي حين كان العرب يتكاثرون بصورة طبيعية ، لم يكن اليهود يتكاثرون، بل يزيدون وفقا لوتيرة الهجرة الى فلسطين بكل ما تمثله من زيادة اصطناعية . وكان اليهود يهاجرون الى امريكا الجنوبية ، البرازيل والارجنتين ، والى استراليا ونيوزيلندا واميركا وكندا ، وكانوا عازفين عن الذهاب الى فلسطين لانهم كانوا يظنون بأن حالهم ، عندئذ ، سيغدو كحال من يستجير من الرمضاء بالنار . وظل الحال كذلك الى ان أخذ اليهود الالمان يفرون من المانيا ، والعمال اليهود الذين كانوا يعملون في المانيا اخذوا يعملون في فلسطين ، وكانت قلوب هؤلاء مقرحة ومملوءة بالحقد اكثر مائة مرة من الحقد الذي كان لدى يهود « الغيتو » تجاه مضطهديهم في بلدان اوروبا الشرقية ، رومانيا وروسيا وغيرها . وعندئذ بدأ الصراع الحقيقي بين اليهود في فلسطين وعرب فلسطين .

لقد كان اليهودي المنتج الوحيد الذي قابلته خلال الفترة التي قضيتها هناك ابتداء من الفترة التي قضيتها في القدس حيث كنت اتعلم في « اليشيفاه » اي المدرسة الدينية ، صبيا صهيونيا أظن ان اسمه كان « يوشكا » ، وكان ابوه يهودبا ميسور الحال وفد الى فلسطين من اميركا الجنوبية او من جهة اخرى في العالم واشترى قطعة من الارض اكبر من قدرته ، فلم يكن لديه ما يكفي من المال ليغرس كل ما ود ان يغرسه من اشجار البرتقال ، ولم يكن ما معه من نقود يكفي لكي يعيش على مدخراته طوال السنوات الاربع او الخمس التي تحتاجها اشجار البرتقال حتى تثمر ويعيش مما يبيعه منها. وكان يوشكا — ولا ادري ان كان هذا هو اسمه الاول او اسم عائلته — فتى وسيما ، وكان يماثل العرب في مهارته في ركوب الخيل . وفي احدى مهرجانات سباق الخيول السنوية حيث كان غالبية المتسابقين من العرب ولم يشترك فيها الا بضعة يهود وربما كان يوشكا هو اليهودي الوحيد ، وكنا نعبده ، وقد ربح مرة جائزة السباق اذ سبق جميع المتبارين . هذا كان حال يوشكا في الرياضة، اما في الزراعة فلا ادري ان كانت مساعدته لوالده في غرس الاشجار تعزى الى ما عرف عن والده من جد واجتهاد في العمل ، فقد يكون هذا هو سر نشاط يوشكا واجتهاده ، وكذلك قد يكون هنالك غير يوشكا حالات فردية شاذة اخرى ، الا انني لم أر مطلقا اي شخص يهودي رجلا كان ام صبيا يغرس اشجارا ، او يسقي اشجارا ، وعلى اية حال لم يكن هناك كثير من البساتين التي اشرف اليهود على غرسها ، فمعظم البساتين كان يملكها العرب . ان البرتقال المعروف باسم « البرتقال اليافاوي » هو برتقال عربي ، وهو الى اليوم ما زال من احب اصناف البرتقال في اسواق لندن وكذلك في اسواق نيويورك ، حتى في منطقة سانتا كلارا يوجد للبرتقال اليافاوي اسم كبير ، فقد اشتروا اغراس هذا البرتقال من يافا العربية وغرسوها هنا .

ان أفضل انواع اليهود « العاملين » الذين قابلتهم ، وهم النوع الوحيد العامل المعافى